56 Surah Waaqiah Tafsir Nazamuddurrar li Baqaaee

سورة الواقعة

56

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 14]

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1)

لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3)

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5)

فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7)

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8)

وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9)

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13)

وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)}

لما صـنف سـبحانه الناس في تلك إلى ثلاث أصـناف: مجرمين وسـابقين ولاحقين، وختم بعلة ذلك وهو أنه ذو الانتقام والإكرام، شـرح أحوالهم في هذه السـورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في الرحمن غاية الظهور فقال بانياً على ما أرشـده السـياق إلى أن تقديره: يكون ذلك كله كوناً يشـترك في علمه الخاص والعام: {إذا وقعت الواقعة *} أي التي لا بد من وقوعها ولا واقع يسـتحق أن يسـمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها، وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الأكبر الذي هو القيامة الجامعة لجميع الخلق للحكم بينهم على الانفراد الظاهر الذي لا مدعى للمشـاركة فيه بوجه من الوجوه، ويجوز أن يكون {إذا} منصـوباً بالمحذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيكون أهول أي إذا وقعت كانت أموراً يضيق عنها نطاق الحصر. ولما كان هذا معناه السـاعة التي أبرم القضـاء بأنه لا بد من كونها، عبر عنه بانياً على مبتدأ محذوف فقال: {ليس لوقعتها} أي تحقق وجودها {كاذبة *} أي كذب فهي مصـدر عبر عنه باسـم الفاعل للمبالغة بأنه ليس في أحوالها شـيء يمكن أن ينسب إليه كذب ولا يمشي فيها كذب أصـلاً ولا يقر عليه، بل كل ما أخبر بمجيئه جاء من غير أن يرده شـيء، وكل ما أخبر بنفيه انتفى فلا يأتي بـه شـيء، وقرر عظمتها وحقق بعث الأمور فيها بقوله مخبراً عن مبتدأ محذوف: {خافضـة} أي هي لمن يشـاء الله خفضـه من عظماء أهل النار وغيرهم مما يشاؤه من الجبال وغيرها إلى أسفل سافلين {رافعة *} أي لضعفاء أهل الجنة وغيرهم من منازلهم وغيرها مما يشـاؤه إلى عليين، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. ولما كان في هذا من الهول ما يقطع القلوب الواعية أكده بقوله وزاد ما يشاء منه أيضاً بقوله مبدلاً من الظرف الأول بعض ما يدخل في الرفع

والخفض: {إذا رجت الأرض} أي كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر {رجاً *} أي زلزلت زلزالاً شديداً بعنف فانخفضت وارتفعت ثم انتفضت بأهلها انتفاضاً شديداً، قال البغوي: والرج في اللغة التحريك. ولما ذكر حركتها المزعجة، أتبعها غايتها فقال: {وبست الجبال} أي فتتت على صلابتها وعظمها بأدنى إشارة وخلط حجرها بترابها حتى صار شيئاً واحداً، وصارت كالعهن المنفوش، وسيرت وكانت تمر مرّ السحاب {بساً * فكانت} أي بسبب ذلك {هباء} غباراً هو في غاية الانمحاق، وإلى شدة لطافته أشار بصيغة الانفعال فقال: {منبثاً *} أي منتشراً متفرقاً بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه فهو كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل في كوة.

ولما ذكر غاية مبادئها المرجفة المرهبة، ذكر مبادئ غاياتها فقال: {وكنتم} أي قسمتم بما كان في جبلاتكم وطباعكم في الدنيا {أزواجاً ثلاثة *} أي أصنافاً لا تكمل حكمة صنف منها إلا بكونها قسمين: أعلى ودونه، ليكون ذلك أدل على تمام القدرة وهم أصحاب الميمنة المنقسمين إلى سابقين وهم المقربون، وإلى لاحقين وهم الأبرار أو أصحاب اليمين، وكأنهم من أولي القلب الذي هو العدل السواء من أصحاب المشأمة إلى آخر أصحاب الميمنة فأصحاب السواء هم المقربون، وبقية أصحاب الميمنة أصحاب اليمين، وأصحاب المشأمة هم أصحاب القسم الثالث، وكل من الثلاثة ينقسم إلى أعلى ودونه، وقد تبينت الأقسام الثلاثة آخر السورة، قال البيضاوي: وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

ولما قسمهم إلى ثلاثة أقسام وفرع تقسيمهم، ذكر أحوالهم وابتدأ ذلك بالإعلام بأنه ليس الخبر كالخبر كما أنه ليس العين كالأثر فقال: {فأصحاب الميمنة *}

أي جهة اليمين وموضـــعها وأعمالها، ثم فخم أمرهم بالتعجيب من حالهم بقوله منبهاً على أنهم أهل لأن يســـأل عنهم فيما يفهمه اليمين من الخير والبركة فكيف إذا عبر عنها بصيغة مبالغة فقال: {ما} وهو مبتدأ ثان {أصحاب الميمنة *} أي جهة اليمين وموضـــعها وأعمالها، والجملة خبر عن الأولى، والرابط تكرار المبتدأ بلفظه، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم الإعذار في الســـورتين المتقدمتين والتقرير على عظيم البراهين، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضـائه سبحانه وقدره {إنا كل شـيء خلقناه بقدر} [القمر: 49] {وكل شـيء فعلوه في الزبر} {القمر: 52] وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح ذكر الساعة {إذا وقعت الواقعة} إلى قوله {وكنتم أزواجاً ثلاثة} فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية، وصدرت بذلك كما جرد في هذه السورة قبل التعريف بحالهم في هذه الدار، وما انجر في الســـور الثلاث جارياً على غير هذا الأســـلوب فبحكم اســـتدعاء الترغيب والترهيب لطفاً بالعباد ورحمة ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحاً لا تلويحاً، وعلى الاستيفاء لا بالإشارة والإيماء، ولهذا قال تعالى في آخر القصـص الأخراوية في هذه السـورة: {هذا نزلهم يوم الدين} فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء وقد قدم حالهم الدنياوي في الســـورتين قبل وتأكيد التعريف المتقدم فيما بعد، وذلك قوله {فأما إن كان من المقربين} إلى خاتمتها- انتهى.

ولما ذكر الناجين بقسميهم، أتبعهم أضـدادهم فقال: {وأصـحاب المشـأمة} أي جهة الشؤم وموضـعها وأعمالها، ثم عظم ذنبهم فقال: {ما أصـحاب المشـأمة}

أي لأنهم أهل لأن يسأل عما أصابهم من الشؤم والشر والسوء بعظيم قدرته التي ساقتهم إلى ما وصلوا إليه من الجزاء الذي لا يفعله بنفسه عاقل بل ولا بهيمة مع ما ركب فيهم من العقول الصحيحة والأفكار العظيمة وصان الأولين عن خذلان هؤلاء فأوصلهم إلى النعيم المقيم.

ولما ذكر القسمين، وكان كل منهما قسمين، ذكر أعلى أهل القسم الأول ترغيباً في أحسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيباً من سوء مآلهم فقال: {والسابقون} أي إلى أعمال الطاعة أصحاب الجنتين الأوليين في الرحمان وهم أصحاب القلب {السابقون *} أي هم الذين يستحقون الوصف بالسبق لا غيرهم لأنه منزلة أعلى من منزلتهم فلذلك سبقوا إلى منزلتهم وهي جنتهم وهم قسمان كما يأتي عن الرازي، وعن المهدوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سألوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

ولما بين علو شأنهم ونسب السبق إليهم، ترجمه نازعاً للفعل منهم بقوله: {أولئك} أي العالو الرتبة جداً من الذين هم أصحاب الميمنة {المقربون *} أي الذين اصطفاهم الله تعالى للسبق فأرادهم لقربه أو أنعم عليهم بقربه ولولا فعله في تقريبهم لم يكونوا سابقين، قال الرازي في اللوامع: المقربون تخلصوا من نفوسهم فأعمالهم كلها لله ديناً ودنيا من حق الله وحق الناس، وكلاهما عندهم حق الله، والدنيا عندهم آخرتهم لأنهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والانقياد، وهم صنفان فصنف قلوبهم في جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبتهم فالحق يستعملهم، وصنف آخر قد أرخى من عنانه، فالأمر عليه أسهل لأنه قد جاور بقلبه هذه الحطة ومحله أعلى فهو أمين الله في أرضه،

فيكون الأمر عليه أسهل لأنه قد جاوز – انتهى. ثم بين تقريبه لهم بقوله: {في جنات النعيم *} أي الذي لا نعيم غيره لأنه لا كدر فيه بوجه ولا منغص، والصنف الآخر منهم المتقربون والمتشاققون من أصحاب المشأمة، أولئك المغضوب عليهم المبعودون، ومن دونهم الضالون البعيدون وهم أصحاب الشمال.

ولما ذكر السابقين فصلهم فقال: {ثلة} أي جماعة كثيرة حسنة، وقال البغوي: والثلة جماعة غير محصورة العدد، {من الأولين *} وهم الأنبياء الماضون عليهم الصلاة والسلام، ومن آمن بهم من غير واسطة رضي الله عنهم {وقليل من الآخرين *} وهم من آمن بمحمد– عليه الصلاة والسلام– كذلك بغير واسطة رضي الله عنهم، فقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف ونيفاً وعشرين ألفاً، وكان من خرج مع موسى عليه السلام من مصر وهم من آمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين وهم ستمائة ألف فما ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من التابعين والصبيان ومن النساء، فكيف بمن عداه من سائر النبيين عليهم الصلاة والسلام. المجددين من بني إسرائيل وغيرهم، وقيل «الثلة والقليل كلاهما من هذه الأمة»، رواه الطبراني وابن عدي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أبان بن أبي عياش وهو متروك ورواه إسحاق بن راهويه مسدد بن مسرهد وأبو داود الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية علي بن زيد وهو ضعيف عن عقبة بن صهبان عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أولى بالصواب، وتطبيقه على هذه الأمة سواء كان مرفوعاً أو موقوفاً صحيح لا غبار عليه، فتكون الصحابة رضي الله عنهم كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم

بإحسان إلى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ومن المعلوم أنه تناقص الأمر بعد ذلك إلى أن صـــار الســـابق في الناس أقل من القليل لرجوع الإسلام إلى الحال الذي بدأ عليها من الغربة

»بدأ الإســلام غريباً وســيكون غريباً فطوبى للغرباء« ويجوز أن يقدر أيضـــاً: وثلـة- أي جمـاعـة كثيرة هلكى- من الأولين، وهم المعـانـدون من الأمم الماضين، وقليل من الآخرين- وهم المعاندون من هذه الأمة.

▲ تفسير الآيات رقم [15- 23]

{عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15)
مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17)
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18)
لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19)
وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20)
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)
وَحُورٌ عِينٌ (22)
كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)}

ولما ذكر السابقين في الخير بصنفيهم مشيراً إلى السابقين في الشر بصنفيهم، ذكر جزاء أهل الخير ليعلم منه جزاء أولئك، فقال مبيناً أنهم ملوك لكن ملكهم لا ينافس فيه ولا يحاسـد، بل هو كله يقابل بالوداد والصـفاء {على سـرر} وهو ما يســر الإنســان من المقاعد العالية المصــنوعة للراحة والكرامة التي هي آية

الملك وهو العرش {موضـونـة *} أي منسـوجة نسـجاً مضـاعفاً منضـودة داخلاً بعضــها في بعض مقارب النســج معجباً كالدرع لكن نســجها بالذهب مفصــلاً بالجوهر من الدر والياقوت.

ولما ذكر الســرر وبين عظمتها، ذكر غايتها فقال: {متكئين} أي متكئين هيئة المتربع أو غيرها من الجنب أو غيرها {عليها} ولما كان الجمع إذا كثر كان ظهور بعض أهله إلى بعض، أعلم أن جموع أهل الجنة على غير ذلك فقال: {متقابلين *} فلا بعد ولا مدابرة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ولا يكره بعضهم بعضاً.

ولما كان المتكئ قد يصعب عليه القيام لحاجته قال: {يطوف عليهم} أي لكفاية كل ما يحتاجون إليه {ولدان} على أحســن صــورة وزي وهيئة {مخلدون *} قد حكم ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة، قال البغوي: تقول العرب لمن كبر ولمن شــمط: إنه مخلد، قال: قال الحســن: هم أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حســنات يثابون عليها ولا ســيئات يعاقبون عليها لأن الجنة لا ولادة فيها، فهم خدام أهل الجنة.

ولما كان مدحهم هذا في غاية الإبلاغ مع الإيجاز، وكان فيه- إلى تبليغ ما لهم- تحريك إلى مثل أعمالهم، وكان الأكل الذي هو من أعظم المآرب مشــاراً إليه بالمدح العظيم الذي من جملته الاســتراحة على الأســرة التي علم أن من عادة الملوك أنهم لا يتســنمونها إلا بعد قضــاء الوطر منه فلم يبق بعده إلا ما تدعو الحاجة إليه من المشــارب وما يتبعها قال تعالى: {بأكواب} أي كيزان مســتديرة الأفواه بلا عرى ولا خراطيم لا يعوق الشــارب منها عائق عن الشــرب من أي موضـــع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الإناء إلى الحالة التي تناوله

عنها ليشرب، ويمكن أن تكون البدأة بالشراب لما نالوا من المتاعب من العطش كما لمن يشرب من الحوض فيكون حينئذ قبل الأكل والله أعلم {وأباريق *} أي أواني لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين {وكأس} أي إناء معد للشرب فيه والشراب نفسه.

ولما كان الشراب عاماً بينه بقوله: {من معين *} أي خمر جارية صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها بل ينبع كما ينبع الماء. ولما أثبت نفعها وما يشوق إليها، نفى ما ينفر عنها فقال: {لا يصـــدعون} أي تصـــدعاً يوجب المجاوزة {عنها} أي بوجع في الرأس ولا تفرق لملالة {ولا ينزفون *} أي يذهب بعقولهم بوجه من الوجوه أي يصرع شرابهم، من نزفت البئر- إذا نزح ماؤها كله، ونزف فلان: ذهب عقله أو ســـكر، وبنى الفعلان لملجهول لأنه لم تدع حاجة إلى معرفة الفاعل، وقال الرازي في اللوامع: قال الصـــادق: لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليهم ولا يغيبون عن مجالس المشاهدة بحال.

ولما بدأ بالألذ الهاضم للأكل، تلاه بما يليه مما يدعو إليه الهضم تصريحاً به بعد التلويح فقال: {وفاكهة مما يتخيرون *} أي هو فيها بحيث لو كان فيها جيد وغيره واختاروا وبالغوا في التنقية لكان مما يقع التخير عليه، ولما ذكر ما جرت العادة بتناوله لمجرد اللذة، أتبعه ما العادة أنه لإقامة البينة وإن كان هناك لمجرد اللذة أيضاً فقال: {ولحم طير} ولما كان في لحم الطير مما يرغب عنه، احترز عنه بقوله: {مما يشتهون *} أي غاية الشهوة بحيث يجدون لآخره من اللذة ما لأوله.

ولما كان لم يكن بعد الأكل والشـــرب أشـــهى من الجماع، قال عاطفاً على {ولدان}: {وحور العين *} أي يطفن عليهم، وجره حمزة والكسائي عطفاً على

{سرر} فإن النساء في معنى الاتكاء لأنهن يسمين فراشاً. ولما كان المثل في الأصل الشيء نفسه كما مضى في الشورى قال: {كأمثال} أي مثل أشخاص {اللؤلؤ المكنون *} أي المصون في الصدف عما قد يدنسه.

▲ تفسير الآيات رقم [24– 34]

{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25)

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27)

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28)

وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29)

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30)

وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31)

وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32)

لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33)

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)}

ولما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء، دل على أن أعمالهم كانت كذلك لأن الجزاء من جنس العمل فقال تعالى: {جزاء} أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء {بما كانوا} جبلة وطبعاً {يعملون *} أي يجددون عمله على جهة الاستمرار.

ولما أثبت لها الكمال وجعله لهم، نفى عنها النقص فقال: {لا يسمعون} أي على حال من الأحوال {فيها لغواً} أي شيئاً مما لا ينفع فإن أنكاً... بالسميع

الحكيم ذلك، واللغو: الساقط {ولا تأثيماً *} أي ما يحصل به الإثم أو النسبة إلى الإثم، بل حركاتهم وسكناتهم كلها رضى الله، وما قطع قلوب السائرين إلى الله إلا هاتان الخصلتان بينا أحدهم يبني ما ينفعه مجتهداً في البناء إذ هو غلبه طبعه فهدم أكثر ما بنى، وبينا هو يظن أنه قد قرب إذا هو تحقق بمثل ذلك أنه قد بعد، نزحت داره وشط مزاره، فاللّه المستعان.

ولما كان الاستثناء، معيار العموم، ساق بصورة الاستثناء قوله: {إلا قيلاً} أي هو في غاية اللطافة والرقة بما دل عليه المبني على ما قبلها محاسن مع ما تدل عليه مادة قوله. ولما تشوف السامع إليه بالعبير بما ذكر، بينه بقوله: {سلاماً} ودل على دوامه بتكريره فقال: {سلاماً *} أي لا يخطر في النفس ولا يظهر في الحس منهم قول إلا دالاً على السلامة لأنه لا عطب فيها أصلاً، وساقه مساق الاستثناء المتصل دلالة على أنه إن كان فيها لغو فهو ذلك حسب، وهو ما يؤمنهم وينعمهم ويبشرهم مع أنه دال على حسن العشرة وجميل الصحبة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة.

ولما أتم سبحانه القسم الأول القلبي السوائي المولي من الثلاثة بقسميه، وذكر في جزائه مما لأصحاب المدن ما لا يمكنهم الوصول إليه، عطف عليه الثاني الذي هو دونه لذلك وهم والله أعلم الأبرار وهم أيضاً صنفان، وذكر في جزائهم من جنس ما لأهل البوادي أنهى ما يتصورونه ويتمنونه فقال: {وأصحاب اليمين *} ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم، والإشارة إلى أنهم أهل لأن يسأل عن حالهم فإنهم في غاية الإعجاب فقال: {ما أصحاب اليمين} ولما عبر عنهم بما أفهم أنهم أولو القوة والجد في الأعمال، والبركة في جمع الأحوال، ذكر عشيهم بادئاً بالفاكهة لأن عيش الجنة كله تفكه، ذاكراً منها ما

ينبت في بلاد العرب من غير كلفة بغرس ولا خدمة، وأشــار إلى كثرة ما يذكره بأن جعله ظرفهم، فقال من غير ذكر لســـرير الملك الذي حبا به المقربين من الملك، ولم يزد على ذلك المأكول وما معه بما يتصور للبهائم: {في سدر} أي شــجر نبق متدلي الأغصــان من شــدة حمله، من ســدر الشــعر– إذا ســدله {مخضــود *} أي هو مع أنه لا شــوك له ولا عجم بحيث تنثني أغصــانه من شــدة الحمل، من خضــد الشــوك: قطعه، والغصــن: ثناه وهو رطب، وفي ذكر هذا تنبيه على أن كل ما لا نفع فيه أو فيه نوع أذى له في الجنة وجود كريم لأن الجنة إنما خلقت للنعيم.

ولما ذكر ما يطلع في الجبال والأماكن المعطشة والرمال، أتبعه ما لا يطلع إلا على المياه دلالة على أن أماكنهم في غاية الســهولة والري فقال: {وطلح} أي شجر موز أو نخل، وقال الحسن: شجر له ظل بارد طيب الرائحة وقال الفراء وأبو عبيدة: شـــجر عظام لها شـــوك، وقيل: هو أم غيلان، وله نور كثير، ويحكى عن أبي تراب النخشــبي أنه كان ســائراً مع قوم من الصــوفية على قدم التوكل، فجاعوا أياماً فقال: أتريدون أن تأكلوا، قالوا: نعم، فضـــرب بيده على شــجرة غيلان فإذا عليها عراجين موز، فأكلوا إلا شــاباً منهم، فقال: لا آكل ولا أصــحبك بعدها، لأني كنت أســير بلا معلوم، وقد صــرت أنت الآن معلومي، كلما جعت التفتت نفســي إليك. {منضــود *} أي منظوم بالحمل من أعلاه إلى أســفله متراكم يتراكب بعضـــه على بعض على ترتيب هو في غاية الإعجاب، قال في القاموس: الطلح: شـــجر عظيم، والطلع: والموز، والطلع من النخل: شــيء يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضــود، والطرف محدد، أو ما يبدو من ثمرته أول ظهورها.

ولما ذكر ما لا يكون إلا في البلاد الحارة قال: {وظل ممدود *} أي مستوعب للزمان والمكان فهو دائم الاستمداد كما بين الإسفار وطلوع الشمس لا فناء له ولا نهاية. ولما كان ما ذكر من الري لا يستلزم الجري قال: {وماء مسكوب *} أي جار في منازلهم من غير أخدود ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة، ولا الإدلاء في بئر كما لأهل البوادي.

ولما ذكر ما تقدم، عم بقوله: {وفاكهة كثيرة *} أي أجناسها وأنواعها وأشخاصها. ولما كانت لا تكون عندنا إلا في أوقات يسيرة، بين أن أمر الجنة على غير ذلك فقال: {لا مقطوعة} ولما كانت في الدنيا قد يعز التوصل إليها مع وجودها لشيء من الأشياء أقله صعود الشجرة أو التحجز بجدار أو غيره قال: {ولا ممنوعة *} ولما كان التفكه لا يكمل الالتذاذ به إلا مع الراحة قال: {وفرش مرفوعة *} أي هي رفيعة القدر وعالية بالفعل لكثرة الحشو ولتراكم بعضها على بعض ولأنها على السرر، وروى البغوي من طريق النسائي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام»

▲ تفسير الآيات رقم [35 – 46]

{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35)

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36)

عُرُبًا أَتْرَابًا (37)

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39)

وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41)
فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42)
وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)
لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)
وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)}

ولما كانت النساء يسمين فرشاً، قال تعالى معيداً للضمير على غير ما يتبادر إليه الذهن من الظاهر على طريق الاستخدام مؤكداً لأجل إنكار من ينكر البعث: {إنا} أي بما لنا من القدرة والعظمة التي لا يتعاظمها شيء {أنشأناهن} أي الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت ولو عن الهرم والعجز بالبعث، وزاد في التأكيد فقال: {إنشاء *} أي من غير ولادة، بل جمعناهن من التراب كما فعلنا في سائر المكلفين ليكونوا كأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام في خلقه من تراب، فتكون الإعادة كالبداءة، ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون المراد بهن الحور العين فيكون إنشاء مبتدعاً لم يسبق له وجود.

ولما كان للنفس أتم التفات إلى الاختصاص، وكان الأصل في الأنثى المنشأة أن تكون بكراً، نبه على أن المراد بكارة لا تزول إلا حال الوطئ ثم تعود، فكلما عاد إليها وجدها بكراً، فقال : {فجعلناهن} أي الفرش الثيبات وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شيء {أبكاراً *} أي بكارة دائمة لأنه لا تغيير في الجنة ولا نقص.

ولما كان مما جرت به العادة أن البكر تتضرر من الزوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة، دل على أنه لا نكد هناك أصــــلاً بوجع ولا غيره بقوله: {عرباً} جمع عروب، وهي الغنجة المتحببة إلى زوجها، قال الرازي في اللوامع: الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب. ولما كان الاتفاق في السن أدعى إلى المحبة ومزيد الألفة قال: {أترباً *} أي على سن واحدة وقد واحد، بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن. قال الرازي في اللوامع: أخذ من لعب الصبيان بالتراب– انتهى، «وروى البغوي من طريق عبد بن حميد عن الحســـن: قال أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال:» يا أم فلان! إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: إنا أنشـــأناهن، الآية «رواه الترمذي عنه في الشـــمائل هكذا مرســـلاً، ورواه البيهقي في كتاب البعث عن عائشـــة رضي الله عنها والطبراني في الأوسط من وجه عنها، ومن وجه آخر عن أنس رضي الله عنه، قال شيخنا حافظ عصره ابن حجر: وكل طرقه ضعيفة، وروى البغوي أيضـــاً من طريق الثعلبي عن أنس بن مالك رضـــي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال:» عجائزكن في الدنيا عمشـــاً رمصـــاً فجعلهن أبكاراً «.

ولما كان هذا الوصـــف البديع مقتضـــياً لما يزدهي عنه النفس لأن يقال: لمن هؤلاء؟ وإن كان قد علم قبل ذلك، نبه عليه بقوله تعالى: {لأصحاب اليمين *} ويجوز أن يتعلق ب {أتراباً} نصاً على أنهن في أسنان أزواجهن.

ولما أنهى وصـــف ما فيه أهل هذا الصـــنف على أنهى ما يكون لأهل البادية بعد أن وصف ما للسابقين بأعلى ما يمكن أن يكون لأهل الحاضرة، وكان قد

قدم المقايسة في السابقين بين الأولين والآخرين، فعل هنا كذلك فقال: {ثلة من الأولين *} أي من أصحاب اليمين {وثلة} أي منهم {من الآخرين *} فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة، والظاهر أن الآخرين أكثر، فإن وصف الأولين بالكثرة لا ينافي كون غيرهم أكثر ليتفق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة، فإنهم عشرون ومائة صف، هذه الأمة منهم ثمانون صفاً».

ولما أتم وصف ما فيه الصنفان المحمودان، وبه تمت أقسام أصحاب الميمنة الأربعة الذين هم أصحاب القلب واليمين، أتبعه أضدادهم فقال: {وأصحاب الشمال} أي الجهة التي تتشاءم العرب بها وعبر بها عن الشيء الأخس والحظ الأنقص، والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما كان أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة، ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال: {ما أصحاب الشمال *} أي إنهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه. ولما ذمهم وعابهم، ذكر عذابهم ليعلم أن القسم الأشد منهم في الشؤم أشد عذاباً فقال: {في سموم} أي ظرفهم المحيط بهم لفح من لفح النار شديد يتخلل المسام {وحميم *} أي ماء حار بالغ في الحرارة إلى حد يذيب اللحم. ولما كان للتهكم في القلب من شديد الوقد ما يجل عن الوصف والحد قال: {وظل} ثم أتبعه ما صرح بأنه تهكم فقال: {من يحموم *} أي دخان أسود كالحمم أي الفحم شديد السواد بما أفهمته الزيادة وشبه صيغة المبالغة: ولما كان المعهود من الظل البرد والإراحة، نفى ذلك عنه فقال: {لا بارد} ليروح النفس {ولا كريم *} ليؤنس به ويلجأ إليه ويرجى خيره ويعول في حال عليه بأن يفعل ما يفعله الواسع الخلق الصفوح من الإكرام، بل هو مهين، سماه ظلاًّ لترتاح النفس إليه ثم نفى

عنه نفع الظل وبركته لينضـــم حرقان : اليأس بعد الرجاء إلى إخراق اليحموم فتصير الغصة غصتين.

ولما أنتج هذا أنه على خلق اللئيم فهو موضع الحرارة والضيق والخسة والشدة، علله بقوله: {إنهم} أكده وإن كان فيهم أهل الضــر لاجتماعهم في الاســترواح إلى منابذة الدين باتباع الشـهوات، ولأن ما مضــى لهم بالنسبة إلى هذا العذاب حال ناعم، وعبر بالكون دلالة على العراقة في ذلك ولو بتهيئهم له جبلة وطبعاً فقال: {كانوا} أي في الدنيا. ولما كان ذلك ملازماً للاسـتغراق في الزمان بميل الطباع، نزع الجار فقال: {قبل ذلك} أي الأمر العظيم الذي وصلوا إليه {مترفين *} أي في سعة من العيش منهمكين في الشـهوات مستمتعين بها متمكنين فيها لترامي طبـاعهم إليهـا فـأعقبهم مـا في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عـدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شـدة الألم لرقة أجســـامهم المهيأة للترف بتعودها بالراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها {وكانوا} أي مع الترف {يصـرون} أي يقيمون ويدومون على سـبيل التجديد مما لهم من الميل الجبلي إلى ذلك {علـى الحنـث} أي الذنـب، ومنـه قولـهم : بلـغ الغلام الحنث، أي الحلم الذي هو وقت المؤاخذة بالذنب، ويطلق الحنث على الكذب والميل إلى الأباطيل واليمين الغموس ونقض العهد المؤكد.

ولما كان ذلك قد يكون من المعهود مما يغتفر بكونه صـغيراً أو في وقت يسير قال: {العظيم *} دالاً على أنهم يستهينون العظائم من القبائح والفواحش.

▲ تفسير الآيات رقم [47- 55]

{وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)

أَوَآَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48)

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49)
لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)
لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52)
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53)
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54)
فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)}

ولما وصفهم بالترف والإصرار على السرف، وكان ذلك يلازم البطالة، وكان يلزم عنها الغباوة والفساد الموجب للشقاوة، ذكر إنكارهم لما لا أبين منه، فقال عاطفاً على ما أفهمه التعبير عن الإثم بالحنث من نحو: فكانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون وأن الرسل كاذبون: {وكانوا يقولون *} أي إنكاراً مجددين لذلك دائماً جلافة أو عناداً: {أئذاً} أي أنبعث إذاً، وحذف العامل لدلالة {مبعوثون} عليه، ولا يعمل هو لأن الاستفهام وحرف التأكيد اللذين لهما الصدر معناه {متنا} أي فلم يبق في رد أرواحنا طب بوجه {وكنا} أي كوناً ثابتاً {تراباً وعظاماً} ولما كان استفهامهم هذا لإنكار أن يكون في شيء من إقامة أبدانهم أو رد أرواحهم طب، أعاد الاستفهام تاكيداً لإنكارهم فقال: {أءِنا لمبعوثون *} أي كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر، وأكدوا ليكون إنكارهم لما دون المؤكد بطريق الأولى.

ولما كانت أفهامهم واقفة مع المحسوسات لجمودهم. وكان البلى كلما كان أقوى كان ذلك البالي في زعمهم من البعث أبعد، قالوا مخرجين في جملة فعلية عطفاً على الواو من {معبوثون} من غير تأكيد بضمير الفصل بالاستفهام: {أو

آباؤنا } أي يبعث آباؤنا أي يوجد بعثهم من حين، وزادوا الاســـتبعاد على ما أفهموا بقولهم: {الأولون *} أي الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم، فصــاروا كلهم تراباً ولا ســيما إن حملتهم الســيول ففرقت ترابهم في كل أوب، وذهبت به في كل صوب، وسكن نافع وابن عامر الواو على أن العاطف {أو} ويجوز أن يكون العطف على محل «إن» واسمها.

ولما كـانوا في غـايـة الجلافـة، رد إنكـارهم بـإثبـات مـا نفوه، وزادهم الإخبـار بإهانتهم ثم دل على صحة ذلك بالدليل العقلي لمن يفهمه، فقال مخاطباً لأعلى الخلق وأوقفهم بـه لأن هذا المقام لا يذوقـه حق ذوقـه إلا هو كمـا أنـه لا يقوم بتقريره لهم والرفق بهم إلا هو : {قل} أي لهم ولكـل من كـان مثلهم، وأكـد لإنكارهم: {إن الأولين} الذين جعلتم الاستبعاد فيهم أولياً، ونص على الاستغراق بقوله: {والآخرين *} ودل على سـهولة بعثهم وأنه في غاية الثبات، منبهاً على أن نقلهم بالموت والبلى تحصــيل لا تفويت: {لمجموعون *} بصــيغة اســم المفعول، في المكان الذي يكون فيه الحسـاب. ولما كان جمعهم بالتدريج، عبر بالغاية فقال: {إلى ميقات} أي زمان ومكان {يوم معلوم *} أي معين عند الله، ومن شــأنه أن يعلم بما عنده من الأمارات، والميقات: ما وقت به الشــيء من زمان أو مكان أي حد.

ولما كان زمان البعث متراخياً عن نزول القرآن، عبر بأداته وأكد لأجل إنكارهم فقال: {ثم} أي بعد البعث بعد الجمع المدرج {إنكم} وأيد ما فهمه من أصـحـاب الشمال هم القسم الأدنى من أصحاب المشأمة فقال: {أيها الضالون} أي الذين غلبـت عليـه الغبـاوة فيهم لا يفهمون، ثم أتبع ذلـك مـا أوجـب الحكم عليهم

بالضلال فقال: {المكذبون *} أي تكذيباً ناشئاً عن الضلال والتقيد بما لا يكذب به إلا عريق في التكذيب بالصدق {لآكلون من شجر} منبته النار.

ولما كان الشجر معدن الثمار الشهية كالسدر والطلح، بينه بقوله: {من زقوم *} أي شيء هو في غاية الكراهة والبشاعة في المنظر ونتن الرائحة والأذى، قال أبو عبد الله القزاز في ديوانه الجامع وعبد الحق في واعيه: الزقم: شوب اللبن والإفراط فيه، يقال: بات يزقم اللبن زقماً، ومن هذا الزقوم الذي ذكره الله تبارك وتعالى، وقالا: قال أبو حنيفة: الزقوم شجرة غبراء صغيرة الورق لا شوك لها زفرة لها كعابر في رؤوسها ولها ورد تجرشه النحل، ونورها أبيض ورأس ورقها قبيح جداً، وهي مرعى، ومنابتها السهل، وقال في القاموس: في الدفر بالدال المهملة، الدفر – بالتحريك: وقوع الدود في الطعام والذل والنتن، ويسكن، وقال في المعجمة: الذفر – محركة: شدة ذكاء الريح كالذفرة أو يخص برائحة الإبط المنتن، والنتن وماء الفحل، والذفراء من الكتائب: السهكة من الحديد، والكعبرة بضمتين عين وراء مهملتين: عقدة أنبوب الزرع، وعن السهيلي أن أبا حنيفة ذكر في النبات أن شجرة باليمن يقال لها الزقوم لا ورق لها، وفروعها أشبه شيء برؤوس الحيات، وقال البيضاوي: شجرة صغيرة الورق دفرة مرة تكون بتهامة، وفي القاموس: والزقمة: الطاعون وقال في النهاية: فعول من الزقم: اللقم الشديد والشرب المفرط، وقال ابن القطاع: زقم زقماً: بلع، وقد علم من مجموع هذا الكلام تفسيره بالطاعون تارة والشرب المفرط أخرى، ومن الاشتراط والشجرة المنتنة والبشعة المنظر أنه شيء كريه يضطر آكله إلى التملؤ منه بنهمة وهمة عظيمة، ومن المعلوم أن الحامل له على هذا مع هذه الكراهة لا يكون إلا في أعلى طبقات الكراهة، ولذلك حسن جداً موقع قوله

مسبباً عن الأكل: {فمالئون} أي ملأً هو في غاية الثبات وأنتم في غاية الإقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة {منها } أي الشـــجر، أنثه لأنه جمع شـــجر أو هو اســـم جنس، وهم يكرهون الإناث فتأنيثه– والله أعلم– زيادة في تنفيرهم منه {البطون *} أي لشـيء عجيب يضـطركم إلى تناول هذا الكريه مما هو أشـــد منه كراهة بطبقات من جوع أو غيره، وإن فســـرت بما قالوا من أنه معروف لهم أنه الزبد بالتمر لم يضــر ذلك بل يكون المعنى أنهم يتملؤون منها تملأ من يأكل من هذا في الدنيا مع أنه من المعلوم أنه لا شـــــيء في النار المعدة للعذاب لمن أعدت لعذابه حسن.

ولما كان من يأكل كثيراً يعطش عطشاً شديداً فيشرب ما قدر عليه رجاء تبريد ما به من حرارة العطش، سبب عنه قوله: {فشاربون عليه} أي على هذا المليء أو الأكل {من الحميم *} أي الماء الذي هو في غاية الحرارة بحث ضـــوعف إحماؤه وإغلاؤه.

ولما كان شـــــربهم لأدنى قطرة من ذلك في غاية العجب، أتبعه ما هو أعجب منه وهو شدة تملئهم منه فقال مسبباً عما مضـى: {فشـاربون} أي منه {شـرب} بالفتح في قراءة الجماعة وبالضــم لنافع وعاصــم وحمزة، وقرئ شــاذاً بالكســر والثلاثة مصــادر، قال في القاموس: وشــرب كســمع شــرباً ويثلث أ والشــراب مصدر وبالضم والكسر اسمان، وبالفتح القوم: يشربون، وبالكسر: الماء والحظ منه، والمورد ووقت الشرب، والكل يصلح هنا {الهيم *} أي الإبل العطاش لأن بها الهيام وهو داء يشـبه الاسـتسـقاء جمع أهيم، وقال القزاز: جمع هيماء وهو أي– اليهام– بالضـم: داء يصـيب الإبل فتشـرب ولا تروى– انتهى. وقال: ذو الرمة:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد *** صداها ولا يقضي عليها هيامها

ويقال: الهيم: الرمل، ينصب فيه كل ما صب عليه، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى الأكل ثم من العطش ما يضطرهم إلى الشرب على هذه الهيئة.

▲ تفسير الآيات رقم [56- 61]

{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)
نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58)
أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)
نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60)
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61)}

ولما كان كأنه قيل: هذا عذابهم كله، قيل تهكماً بهم ونكاية لهم: {هذا نزلهم} أي ما يعد لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضـــيف أول حلوله كرامة له {يوم الدين *} أي الجزاء الذي هو حكمة القيامة، وإذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتي بعده على طريق من يعتني به فما ظنك بما يكون لمن هو أغنى منهم من المعاندين وهو في طريق التهكم مثل قول أبي الشعراء الضبي:

وكنا إذا الجبار بالسيف ضافنا *** جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

ولما ذكر الواقعة وما يكون فيها للأصناف الثلاثة، وختم بها على وجه بين فيه حكمتها وكانوا ينكرونها، دل عليه بقوله: {نحن} أي لا غيرنا {خلقناكم} أي بما لنا من العظمة، ولعل هذا الخطاب للدهرية المعطلة من العرب . ولما كانوا منكرين للبعث عدوا منكرين للابتداء وإن كانوا من المخلصـــة بالمقريب بالخلق

لأنهما لما بينهما من الملازمة لا انفكاك لأحدهما عن الآخر فقال: {فلولا} أي فتسبب عن ذلك أن يقال تهديداً ووعيداً: هلا ولم لا {تصدقون *} أي بالخلق الذي شاهدتموه ولا منازع لنا فيما فيه فتصدقوا بما لا يفرق بينه وبينه إلا بأن يكون أحق منه في مجاري عاداتكم، وهو الإعادة فتعملوا عمل العبيد لساداتهم ليكون حالكم حال مصدق بأنه مربوب.

ولما حضضهم على التصديق بالاستدلال بإيجادهم، وكان البعث إنما هو تحويلهم من صورة بالية إلى الصورة التي كانوا عليها من قبل، سبب عن تكذيبهم به مع تصديقهم بالخلق عدم النظر في تبديل الصور في تفاصيله، أو سبب عن قول من عساه يقول من أهل الطبائع: إنما خلقنا من نطفة حدثت بحرارة كامنة، فقال: {أفرأيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة أنا خلقناكم فيهديكم ذلك أنا نقدر على الإعادة كما قدرنا على البداءة فرأيتم {ما تمنون *} أي تريقون– من النطف التي هي مني في الأرحام بالجماع.

ولما كانت العبرة بالمسبب لا بالسبب، نبه على ذلك بتجديد الإنكار تنبيهاً على أنهم وإن كانوا معترفين بتفرده بالإبداع، فإن إنكارهم للبعث مستلزم لإنكارهم لذلك فقال: {ءأنتم تخلقونه} أي توجدونه مقدراً على ما هو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة إلى صورة العلقة ثم من صورة العلقة إلى صور المضغة ثم منها إلى صور العظام والأعصاب {أم نحن} خاصة. ولما كان المقام لتقرير المنكرين ذكر الخبر المفهوم من السياق على وجه أفهم أن التقدير: أو أنتم الخالقون له أم نحن؟ فقال: بل نحن {الخالقون *} أي الثابت لنا ذلك، فالآية من الاحتباك: ذكر أولاً {تخلقون} دليلاً على حذف مثله له سبحانه ثانياً، وذكر الاسم ثانياً دليلاً على حذف مثله لهم أولاً، وسر ذلك أنه

ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم مما يدل على وقت التجدد ولو وقتاً ما، وما هو الأولى بصفاته سبحانه مما يدل على الثبات والدوام.

ولما كان الجواب: أنت الخالق وحدك، وكان الطبيعي ربما قال: اقتضى ذلك الحرارة المخمرة للنطفة، وكانت المفاوتة للآجال مع المساواة في اسمية الحياة من الدلائل العظيمة على تمام القدرة على الإفناء والإبداء بالاختيار مبطلة لقول أهل الطبائع دافعة لهم، أكد ذلك الدليل بقوله: {نحن} أي بما لنا من العظمة لا غيرنا {قدرنا} أي تقديراً عظيماً، لا يقدر سوانا على نقض شيء منه {بينكم} أي كلكم لم نترك أحداً منكم بغير حصة منه {الموت} أي أوجبناه على مقدار معلوم لكل أحد لا يتعداه، فقصرنا عمر هذا وربما كان في الأوج من قوة البدن وصحة المزاج، فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره ما قدروا أن يؤخروه لحظة، وأطلنا عمر هذا وقد يكون في الحضيض من ضعف البدن واضطراب المزاج لو تمالؤوا على تقصيره طرفة عين لعجزوا، وأنتم معترفون بأنه سبحانه رتب أفعاله على مقتضى الكمال والقدرة والحكمة البالغة، فلو كانت فائدة الموت مجرد القهر لكانت نقصاً لكونه يعم الغني والفقير والظالم والمظلوم، ولكان جعل الإنسان مخلداً أولى وأحكم، ففائدته غير مجرد القهر وهي الحمل على إحسان العمل للقاهر خوفاً من العرض عليه والمحاسبة بين يديه ثم النقلة إلى دار الجزاء والترقية إلى العلوم التي البدن حجابها من تمييز الخبيث والطيب والعلم بمقادير الثواب والعقاب، وغير ذلك مما يبصره أولو الألباب.

ولما كان حاصل الموت أنه تغيير الصورة التي كانت إلى غيرها، وكان من قدر على تحويل صورة إلى شيء قدر على تحويلها إلى شيء آخر مماثل

لذلك الشـــيء قال: {وما نحن} أي على ما لنا من العظمة، وأكد النفي فقال: {بمســـبوقين *} أي بالموت ولا عاجزين ولا مغلوبين {على أن نبدل} تبديلاً عظيماً {أمثالكم} أي صوركم وأشخاصكم لما تقدم في الشورى من أن المثل في الأصل هو الشـيء نفسه {وننشئكم} أي إنشـاء جديداً بعد تبديل ذواتكم {في ما لا تعلمون *} فإن بعضـهم تأكله السـباع أو الحيتان أو الطيور فتنشـأ أبدانُها منه، بعضـهم يصير تراباً فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب، فنشأ منه أبدانها، وربما صـــار ترابه من معادن الأرض كالذهب والفضـــة والحديد والحجر ونحو ذلك، وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى: {قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً} إلى آخرها، أو يكون المعنى كما قال البغوي: نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم ونخلقكم فيما لا تعلمون من الصـور. أي بتغيير أوصـافكم وصـوركم في صـور أخرى بالمسخ، ومن قدر على ذلك قدر على الإعادة.

▲ تفسير الآيات رقم [62- 69]

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63)

أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68)

أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69)}

ولما كان التقدير : فلقد علمتم النشـــأة الثانية النطفية، عطف عليه قوله مؤكداً تنبيهاً على أنهم لما كانوا يعملون بخلاف ما يعلمون كانوا كأنهم منكرون لهذا العلم: {ولقد علمتم} أي أيها العرب {النشـــأة الأولى} الترابية لأبيه آدم عليه الصـــلاة والســـلام: أو اللحمية لأمكم حواء عليها الســـلام حيث لم يكن هناك طبيعة تقتضـــــي ذلك، وإلا لوجد مثل ذلك بعد ذلك، والنطفية لكم، وكل منها تحويل من شــــيء إلى غيره، فالذي شـــاهدتم قدرته على ذلك لا يقدر على تحويلكم بعد أن تصـيروا تراباً إلى ما كنتم عليه أولاً من الصـورة؟ ولهذا سـبب عما تقدم قوله: {فلولا} أي فهلا ولم لا {تذكرون *} أي تذكراً عظيماً تكرهون أنفســـكم وإن كان فيه خفاء ما- مما أشـــار إليه الإدغام من أن الملوم عليه غيب، وكذا بعض ما قيس به أن من قدر على هذه الوجوه من الإبداءات قدر على الإعادة، بل هي أهون في مجاري عاداتكم.

ولما كان علمهم بأمر النبات الذي هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضـــى، وكان أمره في الحرث وإلقاء البذر فيه أشـبه شـــيء بالجماع وإلقاء النطفة، ولذلك سميت المرأة حرثاً، وصل بما مضى مسبباً عنه قوله منكراً عليهم: {أفرأيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصـــر أو البصـــيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم {ما تحرثون *} أي تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه، وكان القادر عليه قادراً على كل شـــيء، وهم يعتقدون في أمر البعث ما يؤدي إلى الطعن في قدرته، كرر الإنكار عليهم فقال: {ءأنتم تزرعونه} أي تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير مالاً {أم نحن} خاصة، وأكد لما مضى بذكر الخبر

المعلوم من السياق فقال: {الزارعون *} أي المنبتون له والحافظون، فالآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أختها قريباً سواء.

ولما كان الجواب قطعاً: أنت الفاعل لذلك وحدك؟ قال موضحاً لأنه ما زرعه غيره بأن الفاعل الكامل من يدفع عما صنعه ما يفسده، ومن إذا أراد إفساده لم يقدر أحد على منعه {لو نشاء} أي لو عاملناكم بصفة العظمة، وأكد لأن فعلهم فعل الآمن من ذلك مع أنهم في غاية الاستبعاد لأن يهلك زرعهم كما زرعوه أو لأن المطعوم أهم من المشروب وأعظم، فإنه الأصل في إقامة البدن والمشروب تبع له فقال: {لجعلناه} أي بتلك العظمة {حطاماً} أي مكسراً مفتتاً لا حب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهلك أو غير ذلك فلا ينتفع به {فظلتم} أي فأمتم بسبب ذلك نهاراً في وقت الأشغال العظيمة وفي كل وقت وتركتم كل ما يهمكم {تفكهون *} قال في القاموس: فكههم بملح الكلام: أطرفهم بها وفكه- كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه: طيب النفس أو يحدث صحبه فيضحكم ومنه تعجب كتفكه، والتفاكه: التمازح، وتفكه: تندم: والأفكوكة: الأعجوبة، وقال ابن برجان: الفكه هو المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب- انتهى.

فأقمتم دائماً تندمون على العاقكم أو معاصيكم التي سببت ذلك التلف أو تتعجبون أو تحدثون في ذلك ولم تعرجوا على شغل غيره كما تفعلون عند الأشياء السارة التي هي في غاية الإعجاب والملاحة والملاءمة، ولهذا عبر عما المراد به الإقامة مع الدوام ب {ظل} الذي معناه أقام نهاراً إشارة إلى ترك الأشغال التي تهم ومحلها النهار ويمنع الإنسان من أكثر ما يهمه من الكلام لهذا النازل الأعظم، وحذف إحدى لامي ظل وتاء التفعل من تفكه إشارة إلى

ضـعف المصــابين عن الدفاع في بقائهم وفي كلامهم حال بقائهم الضـعيف، وكون المحذوف عين الفعل وهو الوسط، إشارة إلى خلع القلب واختراق الجوف والقهر العظيم، فلا قدرة لأحد منهم على ممانعة هذا النازل بوجه ولا على تبريد ما اعتراه منه من حرارة الصدر وخوف الفقر بغير الشكاية إلى آماله ممن يعلم أنه لا ضر في يده ولا نفع، ورمبا كان ذلك إشارة إلى أنه عادته سبحانه قرب الفرج من شدائد الدنيا ليكون الإنسان متمكناً من الشكر لا عذر له في تركه، ويكون المعنى أنكم مع كثرة اعتيادكم للفرج بعد الشدة عن قرب تيأسون أول ما يصــدمكم البلاء، فتقبلون على كثرة الشــكاية، ولا ينفعكم كثرة التجارب لإدرار النعم أبداً.

ولما ذكر تفكههم، وكان التفكه يطلق على ما ذكر من التعجب والتندم وعلى التنعم، قال الكســائي: هو من الأضــداد، تقول العرب: تفكهت أي تنعمت، وتفكهت، أي حزنت، بين المراد بقوله حكاية لتفكههم: {إنا} وأكد إعلاماً بشـدة بأســهم فقال {لمغرمون *} أي مولع بنا وملازمون بشــر دائم وعذاب وهلاك لهلاك رزقنا، أو مكرمون بغرامة ما أنفقنا ولم ينتفع به، وقراءة أبي بكر عن عاصم بالاستفهام لإنكار هذا الواقع والاستعظام له والتعجب منه، وهي منبهة على أنهم لشــدة اضــطرابهم من ذلك الحادث مذبذبون تارة يجزمون باليأس والشر وتارة يشكون فيه وينسبون الأمر إلى سوء تصرفهم، وعليه يدل إضرابهم: {بل نحن} أي خاصة {محرمون *} أي حرمنا غيرنا وهو من لا يرد قضـاؤه، فلا حظ لنا في الاكتســاب، فلو كان الزراع ممن له حظ لأفلح زرعه، قال في القاموس: الغرام: الولوع والشـر الدائم والهلاك والعذاب، والغرامة ما يلزم أداؤه، وحرمه: منعه، والمحروم، الممنوع عن الخير ومن لا ينمى له مال والمحارف–

أي بفتح الراء– وهو الممنوع من الخير الذي لا يكاد يكتسب، وقال الأصبهاني في تفسـيره: والمحروم ضـد المرزوق، أي والمرزوق المجرود بالجيم وهو المحظوظ.

ولما وقفهم على قدرته في الزرع مع وجود أسـبابه، وقدمهم بشـدة إليه، وكان ربما ألبس نوع لبس لأن لهم فيه سـبباً في الجملة، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شـيء من أمره أصلاً، فقال مسبباً عما أفادهم هذا التنبيه مذكراً بنعمة الشرب الذي يحوج إليه الغذاء: {أفرءيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهنا عليه مما مضـى في المطعم وغيره، أفرأيتم {الماء} ولما كان منه ما لا يشـرب، وكانت النعمة في المشروب أعظم، قال واصفاً له بما أغنى عن وصفه بالعذوبة، وبين موضـع النعمة التي لا محيد عنها فقال: {الذي تشـربون *} ولما كان عنصره في جهة العلو، قال منكراً عليهم مقرراً لهم: {أءنتم أنزلتموه} ولما كان الإنزال قد يطلق على مجرد إيجاد الشـيء النفيس، وكان السـحاب من عادته المرور مع الريح لا يكاد يثبت، عبر بقوله تحقيقاً لجهة العلو وتوقيفاً على موضـع النعمة في إثباته إلى أن يتم حصـول النفع به: {من المزن} أي السـحاب المملوء الممدوح الذي شـأنه الإسراع في المضـي، وقال الأصـبهاني، وقيل: السـحاب الأبيض خاصـة، وهو أعذب ماء {أم نحن} أي خاصـة، وأكد بذكر الخبر وهو لا يحتاج إلى ذكره في أصـل المعنى فقال: {المنزلون *} أي له، رحمة لكم وإحسـاناً إليكم بتطييب عيشـكم على ما لنا من مقام العظمة الذي شـأنه الكبر والجبروت وعدم المبالاة بشيء، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في الآيتين السابقتين سواء.

▲ تفسير الآيات رقم [70– 76]

{لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)
أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)
أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)
فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)}

ولما كان الجواب : أنت وحدك فعلت ذلك على غناك عن الخلق بما لك من الرحمة وكمال الذات والصفات، قال مذكراً بنعمة أخرى: {لو نشاء} أي حال إنزاله وبعده قبل أن ينتفع به. ولما كانت صيرورة الماء ملحاً أكثر من صيرورة النبت حطاماً، ولم يؤكد لذلك وللتنبيه على أن السامعين لما مضى التوقيف على تمام القدرة صاروا في حيز المعترفين فقال تعالى : {جعلناه} أي بما تقتضيه صفات العظمة {أجاجاً} أي ملحاً مراً محرقاً كأنه في الأحشاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشاً ولا ينبت نبتاً ينتفع به. ولما كان هذا مما لا يساغ لإنكاره، سبب عنه على سبيل الإنكار والتحضيض قوله: {فلولا تشكرون *} أي فهل لا ولم لا تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الذي أوجده لكم ومكنكم منه وجعله ملائماً لطباعكم مشتهى لنفوسكم نافعاً لكم في كل ما ترونه.

ولما كانت النار سبباً لعنصر ما فيه الماء فيتحلب فيتقاطر كما كان الماء سبباً لتشقيق الأرض بالزرع، ولم يكن لمخلوق قدرة على التول بنوع سبب، أتبعه بما

كما أتبع الزرع بالماء لذلك ولبيان القدرة على ما لا سـبب فيه لمخلوق في السفل كما كان إنزال الماء عرياً عن سنتهم في العلو، فقال مسبباً عما مضى تنبيهاً على أنه أهلهم للتأمل في مصـنوعاته والتبصـر في عجائب آياته فقال: {أفرءيتم} أي أخبروني هل رأيتم بالأبصار والبصائر ما تقدم فرأيتم {النار} ولما كان المراد ناراً مخصوصة توقفهم على تمام قدرته وتكشف لهم ذلك كشفاً بيناً بإيجاد الأشياء من أضدادها فقال: {التي تورون *} أي تستخرجون من الزند فتوقدون به سواء كان الزند يابسـاً أو أخضـر بعد أن كانت خفية فيه لا يظن من لم يجرب ذلك أن فيه ناراً أصـلاً، فكان ذلك مثل التورية التي يظهر فيها شـيء ويراد غيره، ثم صـار بعد ذلك الخفاء إلى ظهور عظيم وسلطة متزايدة وعظمة ظاهرة تحرق كل ما لا بسـها حتى ما خرجت منه، والعرب أعرف الناس بأمر الزند، وذلك أنهم يقطعون غصناً من شجر المرخ وآخر من العفار، ويحكون أحدهما على الآخر فتتقدح منها النار على أن النار في كل شـجر، وإنما خص المرخ والعفار لسـهولة القدح منهما، وقد قالوا: في كل شـجر نار واستمجد المرخ والعفار.

ولما كان هذا من عجائب الصـنع، كرر التقرير والإنكار تنبيهاً عليه فقال: {ءأنتم أنشـأتم} أي اخترعتم وأوجدتم وأودعتم وأحييتم وربيتم وأوقعتم {شـجرتها} أي المرخ والعفار التي تتخذون منها الزناد الذي يخرج منه، وأسـكنتموها النار مختلطة بالماء الذي هو ضـدها وخبأتموها في تلك الشـجرة لا يعدو واحد منها على الآخر مع المضادة فيغلبه حتى يمحقه ويعدمه {أم نحن} أي خاصة، وأكد بقوله: {المنشـئون *} أي لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة، فمن قدر على إيجاد النار التي هي أيبس ما يكون من الشـجرة الأخضـر مع ما فيه من

المائية المضادة لها في كيفيتها، كان أقدر على إعادة الطرواة والغضاضة في تراب الجسد الذي كان غضاً طرياً فيبس وبلي، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أخواتها سواء.

ولما كان الجواب قطعاً: أنت وحدك، قال دالاًّ على ذلك تنبيهاً على عظم هذا الخبر: {نحن} أي خاصة {جعلناها} بما اقتضته عظمتنا، وقدم من منافعها ما هو أولى بسياق البعث الذي هو مقامه فقال: {تذكرة} أي شيئاً تتذكرونه وتتذكرون به تذكراً عظيماً جليلاً عن كل ما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ فيها من شجرة الزقوم وغير ذلك مما ننيره لأولي البصائر والفهوم من العلوم، قال ابن برجان: فوزان قدح الزناد من الشجر، والزناد وزان الصيحة بهم ووزان إنشائه الأجسام وزان إنشائه الشجرة النار، ويتذكر بإنشائها في الشجر إنشاء الحياة في الأجسام وبإنشائها من غيبها أن النار الكبرى في غيب ما نشاهده، وهذا من آثار كونها في الجو- انتهى. وعلق بها سبحانه كثيراً من أسباب المعاش التي لا غنى عنها ليكون مذكراً لهم بما أوقدوا به حاضراً دائماً فيكون أجدر باتعاظهم {ومتاعاً} أي إنشاءً وبقاءً وتعميراً ونفعاً وإيصالاً إلى غاية المراد من الاستضائة والاصطلاء والإنضاج والتحليل والإذابة والتعقيد والتكليس، وهروب السباع وغير ذلك، والمراد أنها سبب لجميع ذلك {للمقوين} أي الجياع الذي أقوت بطونهم- أي خلت- من الفقر والإغناء من النازلين بالأرض القواء، والقواء بالكسر والمد أي القفر الخالية المتباعدة الأطراف البعيدة من العمران، وكل آدمي مهيأ للقواء فهو موصوف به وإن لم يكن حال الوصف كذلك، وقال الرازي: أقوى من الأضداد: اغتنى وافتقر، وقال أبو حيان: وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما

به قوام عيشــهم من المطعوم والمشـروب، والنار من أعظم الدلائل على البعث إذ فيها انتقال من شــيء إلى شــيء إحداث شــيء من شــيء، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه– انتهى.

ولما دل ســــبحانه في هذه الآيات على عجائب القدرة وغرائب الصــــنع، فبدأ بالزرع وختم بالنار والشـجر، وأوجب ما نبه التذكر لأمرها والتبصـر في شـأنها أنها من أسباب ما قبلها، وأنه سبب لها لكونه سبباً لها لإثبات ما هي له، وكان مجموع ذلك إشارة إلى العناصر الأربعة، قال ابن برجان: إلاّ أن الماء والأرض لخلق الأركان، والأخلاق والصــفات للهواء والنار، وكان ذلك من جميع وجوهه أمراً باهراً، أشــار إلى زيادة عظمته بالأمر بالتنزيه مســبباً عما أفاد ذلك، فقال معرضـاً عمن قد يلم به الإنكار مقبلاً على أشـرف خلقه إشـارة إلى أنه لا يفهم هذا المقام حق فهمه سواه ولا يعمل به حق عمله غيره: {فسبح} أي أوقع التنزيه العظيم عن كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولا سيما بعد بلوغ هذه الأدلة إلى حد المحســوس تســبيح متعجب من آثار قدرته الدالة على تناهي عظمته وتسـبيح شـكر له وتعظيم له وإكبار وتنزيه عما يقول الجاحدون وتعجيب منهم مقتدياً بجميع ما في السماوات والأرض، ومن أعجب ذلك أنه سخر لنا في هذه الدار جهنم، قال ابن برجان: جعل منها بحرارة الشــمس جنات وثمرات وفواكه وزروع ومعايش.

ولما كان تعظيم الاسم أقعد في تعظيم المسمى قال: {باسم} أي متلبسـاً بذكر اسم {ربك} أي المحسن بعد التربية إليك بهذا البيان الأعظم بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك، وأثبتوا ألف الوصــــل هنا لأنه لم يكثر دوره كثرته في البســملة منها وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شــأنهم الإيجاز وتقليل الكثير إذا

عرف معناه، وهذا معروف لا يجهل، وإثبات ما أثبت من أشـــكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه، وكذا لا تحذف الألف مع غير الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة من الأسماء لما تقدم من العلة.

ولما كان المقام للتعظيم قال: {العظيم *} الذي ملأ الأكوان كلها عظمة، فلا شـــيء منها إلا وهو مملوء بعظمته تنزهاً عن أن تلحقه شـــائبة نقص أو يفوته شـيء من كمال، قال القشيري: وهذه الآيات التي عددها سبحانه تمهيد لسلوك طريق الاستدلال وكما في الخبر «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة» هذه الفكرة التي نبه الله عليها.

ولما كان من العظمة الباهرة ما ظهر في هذه الســـورة من أفانين الإنعام في الدارين، وبدأ بنعمة الآخرة لكونها النتيجة، ثم دل عليها بإنعامه في الدنيا فكان تذكيراً بالنعم لتشـكر، ودلالة على النتيجة لتذكر، وفي كل حالة تسـتحضـر فلا تكفر، فوصلت الدلالة إلى حد هو أوضح من المحسوس وأضوأ من المشموس، وكان مع هذه الأمور الجليلة في مظهر أعجز الخلائق على أن يأتوا بمثله من كل وجه، أما من جهة الجواب عن تشـبههم وتعنتهم فلكونه يطابق ذلك مطابقة لا يمكن أن يكون شـــيء مثلها، ويزيد على ذلك بما شـــاء الله من المعارف من غير أن يدع لبســـاً، وأما من جهة المفردات فلكونها النهاية في جلالة الألفاظ ورشـــاقة الحروف وجمع المعاني، فيفيد ذلك أنه لا تقوم كلمة أخرى مقام كلمة منه أصـــلاً، وأما من جهة التركيب فلكون كل كلمة منها أحق في مواضـــعها بحيث إنه لو قدم شـــيء منها أو أخر لاختل المعنى المراد في ذلك الســـياق بحســـب ذلك المقام، وأما من جهة الترتيب في الجمل والآيات والقصـــص في المبادئ والغايات فلكونه مثل تركيب الكلمات، كل جملة منتظمة بما قبلها

انتظام الدر اليتيم في العقد المحكم النظيم، لأنها إما أن تكون علة لما تلته أو دليلاً أو متممة بوجه من الوجوه الفائقة على وجه ممتع الجناب جليل الحجاب لتكون أحلى في فمه، وأجلى بعد ذوقه في نظمه وسائر علمه، فكان ثبوت جميع ما أخبر به على وجه لا مغتمر فيه ولا وقفة في اعتقاد حسنه، فثبت أن الله تعالى أرسل الآتي بهذا القرآن صلى الله عليه وسلم بالهدى وبالحق، لا أنه آتاه كل ما ينبغي له، فآتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها، والموعظة الحسنة، وهي الأمور المرققة للقلوب المنورة للصدور، والمجادلة التي هي على أحسن الطرق في نظم معجز موجب للإيمان، فكان من سمعه ولم يؤمن لم يبق له من الممحلات إلا أن يقول: هذا البيان ليس لظهور المدعى وثبوته بل لقوة عارضة المدعي وقوته على تركيب الأدلة وصوغ الكلام وتصريف وجوه المقال، وهو يعلم أنه يغلب لقوة جداله لا لظهور مقاله، كما أنه ربما يقول أحد المتناظرين عند انقطاعه لخصمه: أنت تعلم أن الحق معي لكنك تستضعفني ولا تنصفني، فحينئذ لا يبقى للخصم جواب إلا الإقسام بالإيمان التي لا مخرج عنها أنه غير مكابر وأنه منصف، وإنما يفزع إلى الإيمان لأنه لو أتى بدليل آخر لكان معرضاً لمثل هذا، فيقول: وهذا غلتني فيه لقوة جدالك وقدرتك على سوق الأدلة ببلاغة مقالك، فلذلك كانوا إذا أفحمهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: إنه يريد أن يتفضل علينا فيما نعلم خلافه، فلم يبق إلا الإقسام، فأنزل الله أنواعاً من الأقسام بعد الدلائل العظام، ولهذا كثرت الآيات في أواخر القرآن، وفي السبع الأخيرة خاصة أكثر، فلذلك سبب عن هذه الأدلة الرائعة والبراهين القاطعة قوله: {فلا أقسم} بإثبات «لا» النافية، إما على أن يكون مؤكدة بأن ينفي ضد ما أثبته القسم، فيجمع الكلام بين

إثبات المعنى المخبر به ونفي ضـــده، وإما على تقدير أن هذا المقام يســـتحق لعظمته وإنكارهم له أن يقســـم عليه بأعظم من هذا على ما له من العظمة لمن له علم- والله أعلم.

ولما كان الكلام الســـابق في الماء الذي جعله ســـبحانه مجمعاً للنعيم الدنيوية الظاهرة وقد رتب سبحانه لإنزاله الأنواء على منهاج دبره وقانون أحكمه، وجعل إنزال القرآن نجوماً مفرقة وبوارق متلالئة متألقة قال : {بمواقع النجوم *} أي بمســـاقط الطوائف القرآنية المنيرة النافعة المحيية للقلوب، وبهبوطها الذي ينبني عليه ما ينبني من الآثار الجليلة وأزمان ذلك وأماكنه وأحواله، وبمساقط الكوكب وأنوائها وأماكن ذلك وأزمانه في تدبيره على ما ترون من الصـنع المحكم والفعل المتقن المقوم، الـدال بغروب الكواكـب على القـدرة على الطي بعـد النشـــر والإعدام بعد الإيجاد، وبطلوعها الذي يشـاهد أنها ملجأة إليه إلجاء السـاقط من علو إلى سـفل لا يملك لنفســه شـيئاً، لقدرته على الإيجاد بعد الإعدام، وبآثار الأنواء على مثل ذلك بأوضـــح منه- إلى غير ذلك من الدلالات التي يضـيق عنها العبارات، ويقصر دون علياها مديد الإشارات، ولمثل هذه المعاني الجليلة والخطوب العظيمة جعل في الكلام اعتراضاً بين القسم وجوابه، وفي الاعتراض اعتراضاً بين الموصوف وصفته تأكيداً للكلام، وهزاً لنافذ الأفهام تنبيهاً على أن الأمر عظيم والخطب فادح جســـيم، فقال موضـــحاً له بالتأكيد رحمة للعبيد بالإشـــارة إلى أنهم جروا على غير ما يعلمون من عظمتنا فعدوا غير عالمين: {وإنه} أي هذا القسـم على هذا المنهج {لقسـم لو تعلمون} أي لو تجدد لكم في وقت علم لعلمتم أنه {عظيم} وإقسامه لنا على ذلك ونحن أقل قدراً وأضعف أمراً إعلاماً بما له من الرحمة التي من عظمها أنه لا يتركنا سدى- كل ذلك ليصلح

أنفســنا باتباع أمره والوقوف عند زجره، قال ابن برجان: ومن إتقانه جل جلاله في خليقته وحكمه في بريته أن جعل لكل واقع من النجوم الفلكية طالعاً يسـمى بالإضافة إلى الواقع الرقيب دون تأخر، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى:

{رب المشـرقين ورب المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان} [الرحمن: 18] يجمع ذلك الشــمس والقمر والنجوم وهي نجوم منازل القمر عددها ثمانية وعشــرون منزلة سوى تحجبها الشمس فتمت تسع وعشرون منزلة يشتشرفها القمر، فربما استتر ليلة وربما استتر ليلتين، فالقمر ينزل في هذه المنازل كل ليلة منزلة حتى يتمها لتمام الشهر، وإما الشمس فإنها تقيم فيها أربعة عشر يوماً ويسمى حلولها في هذه المحال ثم طلوع المنزلة التي تليها لوقوع هذا رقيب لها نوء- انتهى، وهو يعني أن من تأمل هذه الحكم علم ما في هذا القســم من العظم، وأشــبع القول فيها أبو الحكم، وبين ما فيها من بدائع النعم، ثم قال: ويفضـل الله بفتح رحمته كما يشــاء فينزل من الســماء ماء مباركاً يكســر به من برد الزمهرير فيرطبه ويبرد من حر السعير فيعدله، وقسم السنة على أربعة فصول أتم فيها أمره في الأرض بركاتها وتقدير أقواتها، قال {وبارك فيها وقدر بها أقواتها في أربعة أيام} [فصلت: 10] في قراءتنا (فيها) بدل (بها) ا. هـ. ثم قال: وجعل هذه الدنيا على هذا الاعتبار الجنة الصغرى، ولو أتم القسم على هذا الوجه ثم على الاعتبار تخفيفه الفيح وإنارته الزمهرير والسعير هي جهنم الصغرى.

▲ تفسير الآيات رقم [77- 85]

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)
أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)
وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83)
وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84)
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)}

ولما أتم القســـم على هذا الوجه الجليل، أجابه بقوله مؤكداً لما لهم من ظاهر الإنكار : {إنه} أي القرآن الذي أفهمته النجوم بعموم أفهامها {لقرآن} أي جامع ســهل قريب مفقه مبين للغوامض ذو أنواع جليلة {كريم *} ظهرت فيه أفانين إنعامه سبحانه فيما دق من أمور هذه الدنيا وجل من أمور الدارين بما ذكر في هذه الســورة وما تقدمها من إصــلاح المعاش والمعاد، فهو بالغ الكرم منزه عن كل شائبة نقص ولؤم ودناءة، من كرمه كونه من الملك الأعلى إلى خير الخلق بســفارة روح القدس وبلســان العرب الذين اتفق الفرق على أن لســانهم أفصــح الألسن وعلى وجه أعجز العرب.

ولما ذكر المعنى، ذكر محل النظم الدال عليه بلفظ دال على نفس النظم فقال: {في كتب} أي خط ومخطوط فيه جامع على وجه هو في غاية الثبات {مكنون *} أي هو في ســتر مصــون لما له من النفاســة والعلو في الســماء في اللوح المحفوظ، وفي الأرض في الصــدور المشــرفة، وفي الســطور في المصــاحف المكرمة المطهرة، محفوظاً مع ذلك من التغيير والتبديل.

ولما كان ما هو كذلك قد يحصــل له خلل يســوء خدامه قال: {لا يمســه} أي الكتاب الذي هو مكتوب الذي هو مكتوب فيه أعم من أن يكون في الســماء أو

في الأرض أو القرآن أو المكتوب منه فضـــــلاً عن أن يتصـــــرف فيه {إلا المطهرون *} أي الطـاهرون الـذين بولـغ في تطهيرهم وهم رؤوس الملائكـة الكرام، ولم يكن السـفير به إلاّ هم ولم ييســر الله حفظه إلا لأطهر عباده، ولم يعرف معناه إلا لأشرف حفاظه وأطهرهم قلوباً، ومن عموم ما يتحمله اللفظ من المعنى بكونه كلام العالم لكل شـــــيء فهو لا يحمل لفظاً إلا وهو مراد له أنه يحرم منـه على من لم يكن لـه في غايـة الطهارة بـالبعد عن الحدثين الأكبر والأصـــغر، فهو على هذا نفي بمعنى النهي وهو أبلغ، قال البغوي: وهو قول أكثر أهل العلم، وروي بإسـناد من طريق أبي مصـعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو ابن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسـول الله لعمرو بن حزم رضي الله عنه (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) والمراد به المصحف للجوار كما في النهي أن يسـافر بالقرآن إلى أرض العدو. ومما يحتمله أيضــاً التعبير باللمس أنه لا يقرأه بلســـانه إلا طاهر، فإن أريد الجنابة كان النهي للحرمة أو للأكمل.

ولما ذكر الذي منه صيانته، أتبعه شرفه بشرف منزله وإنزاله على حال هو في غاية العظمة مسمياً له باسم المصدر للمبالغة ولأن هذا المصدر أغلب أحواله، ولذلك غلب عليه هذا الأسم: {تنزيل} أي وصوله إليكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للأفهام والتأني والترقية من حال إلى حال وحكم بواسـطة الرسـل من الملائكة.

ولما كان هذا في غاية الاتفاق واليسـر ذكر من صـفاته ما يناسـبه فقال: {من رب العالمين *} من الخالق العالم بتربيتهم.

ولما أفصح من وصف هذا الكتاب العظيم ما يقتضي أن يكون بمجرده مثبتاً لما لا تدركه العقول من كماله وكافياً في الإذعان لاعتقاده فكيف إذا كان ما تحكم العقول وتقضي بفساد ما سواه، فكيف إذا كان مما يتذكر الإنسان مثله في نفسه، عجب منهم في جعله سبباً لإنكار البعث الذي إذا ذكر الإنسان أحوال نفسه كفاه ذلك في الجزم به فقال منكراً تعجباً: {أفبهذا} ولما كان الإنسان مغرماً بما يجدد له من النعم ولو هان فكيف إذا كان أعلى النعم قال: {الحديث} أي الذي تقدمت أوصافه العالية وهو متجدد إليكم إنزاله وقتاً بعد وقت {أنتم} أي وأنتم العرب الفصحاء والمفوهون البلغاء {مدهنون *} أي كذابون منافقون بسببه تظهرون غير ما تبطنون أنه كذاب وأنتم تعلمون صدقه بحسن معانيه، وعجزكم عن مماثلته في نظومه ومبانيه، وتقولون: لو شئنا لقلنا مثل هذا: وجميع أفعالكم تخالف هذا فإنكم تصبرون لوقع السيوف ومعانقة الحتوف، ولا تأتون بشيء يعارضه يبادئ شيئاً منه أو يناقضه أو تلاينون أيها المؤمنون من يكذب به ويطعن في علاه أو يتوصل ولو على وجه خفي إلى نقض شيء من عراه، تهاوناً به ولا يتصلبون في تصرفه تعظيماً لأمره حتى يكونوا أصلب من الحديد، قال في القاموس: دهن: نافق، والمداهنة: إظهار خلاف ما تبطن كالإدهان والغش، وقال البغوي رحمه الله: هو الإدهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر، وقال الرازي: والفرق بين المداراة والمداهنة يرجع إلى القصد، فما قصد به غرض سوى الله فهو المداهنة، وما قصد به أمر يتعلق بالدين فهو المداراة، وقال ابن برجان: الإدهان والمداهنة: الملاينة في الأمور والتغافل والركون إلى التجاوز- انتهى. فهو على هذا إنكار على من سمع أحداً يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة، وأهل الاتحاد كابن عربي

الطائي صاحب الفصوص وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت إليه هذه الآية، فإنهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصلاً ورأساً ويحله عروة عروة، فهم أضر الناس على هذا الدين، ومن يؤول لهم أو ينافح عنهم ويعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لإجماع الأمة أنجس حالاً منهم فإن مراده إبقاء كلامهم الذي لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لإبقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه.

ولما كان هذا القرآن متكفلاً بسعادة الدارين، قال تعالى: {وتجعلون رزقكم} أي حظكم ونصيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله {أنكم تكذبون *} أي توجدون حقيقة التكذيب في الماضي والحال، وتجددون ذلك في كل وقت به وبما أرشد إليه من الأمور الجليلة وهي كل ما هو أهل للتصديق به وتصفونه بالأوصاف المتناقضة، ومن ذلك ما أرشد إليه من أنه لا فاعل إلا الله تعالى فتقولون أنتم إذا أمطركم ما يرزقكم به: هذا بنوء كذا، معتقدين تأثير ذلك النوء، وإنما هو بالله تعالى، فجعلتم جزاء الرزق وبذل الشكر على الرزق التكذيب، وقال ابن برجان: وتجعلون رزقي إياكم من قرآن عظيم أنزلته، وكلام عظيم نزلته، ونور إيمان بينته، وضياء يقين جليته، وما أنزلته من السماء من بركات قدرتها ومن رياح أرسلتها، وسحب ألفتها، تجعلون مكان الشكر على ذلك التكذيب.

ولما أنكر عليهم هذا الإنكار، وعجب منهم هذا التعجيب في أن ينسبوا لغيره فعلاً أو يكذبوا له خبراً، سبب عن ذلك تحقيقاً لأنه لا فاعل سواه قوله: {فلولا} وهي أداة تفهم طلباً بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى هل لا ولم لا {إذا بلغت} أي الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار، أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام

عليها دلالة ظاهرة {الحلقوم *} وهو مجرى الطعام في الحلق، والحلق مساغ الطعام والشراب معروف، فكان الحلقوم أدنى الحلق إلى جهة اللسان لأن الميم لمنقطع التمام، {وأنتم} أي والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له {حينئذٍ} أي حين إذ بلغت الروح ذلك الموضع.

ولما كان بصرهم لكونه لا ينفذ في باطن كالعدم قال: {تنظرون *} أي ولكم وصف التحديق إليه ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر، ولم يقل: تبصرون، لئلا يظن أن لهم إدراكاً بالبصر لشيء من البواطن من حقيقة الروح وغيرها نحوها {ونحن} أي والحال أنا نحن بما لنا من العظمة {أقرب إليه} أي المحتضر حقيقة بعلمنا وقدرتنا التامة وملائكتنا {منكم} على شدة قربكم منه {ولكن لا تبصرون *} أي مع تحديقكم إليه لا يتأثر عن ذلك التحديق غايته، وهو الإبصار لقربنا منه، ولا ملائكتنا الموكلين بقبض روحه، لتعلموا أن الفعل لنا لا لغيرنا، فلا يتجدد لكم شيء من هذا الوصف لتدركوا به حقيقة ما هو فيه، فثبت ما أخبرنا به من الاختصاص بباطن العلم والقدرة اللذين عبرنا عنهما بالقرب الذي هو أقوى أسبابها.

▲ تفسير الآيات رقم [86- 96]

{فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)
تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88)
فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89)
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90)
فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92)
فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93)
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)}

ولما كان الكلام لإثبات هذه الأغراض المهمة قبل جواب «لولا» أعادها تأكيداً لها وتبيناً فقال: {فلولا إن كنتم} أيها المكذبون بالبعث وغيره {غير مدينين *} أي مقهورين مملوكين مجربين محاسـبين بما عملتم في دار البلاء التي أقامكم فيها أحكم الحاكمين بامتناعكم بأنفسـكم عن أن يجازيكم أو يمنع غيركم لكم منه، وأصل تركيب (دان) للذل والانقياد- قاله البيضاوي {ترجعونها} أي الروح إلى ما كانت عليه {إن كنتم} أي كوناً ثابتاً {صـادقين *} أي في أنكم غير مقهورين على الإحضار على الملك الجبار الذي أقامكم في هذه الدار للابتلاء والاختبار، وأنه ليس لغيركم أمركم، وفي تكذيبكم لما يخبر به من الأمور الدنيوية بذل شـكركم، وهذا دليل على أنه لا حياة لمن بلغت روحه الحلقوم أصلاً وهذا إلزام لهم بالبعث حاصله أنه سبحانه إن كان لا يعيدكم فليس هو الذي قدر الموت عليكم، وإن كان لم يقدره فما لكم لا ترفعونه عنه لأنه من الفوادح التي لا يدرك علاجها، وأنتم تعالجون مقدماته. وإن قلتم: إنه مقدر لا يمكن علاجه، لزمكم الإقرار بأن البعث مقدر لا يمكن علاجه، فإن أنكرتم أحدهما فأنكروا الآخر، وإن أقررتم بأحدهما فأقروا بالآخر، وإلا فليس إلا العناد، فإن قلتم: نحن لا نعلم أنه قدره فاعلموا أنه لو لم يكن بتقديره لأمكنت مقاومته وقتاً ما لا سـيما والنفوس مجبولة على كراهته، وفي الموتى الحكماء والملوك،

وتقريبه أنكم قد بالغتم في الجحود بآيات الله تعالى وأفعاله في كل شـــيء إن أرسل إليكم رسولاً قلتم: ساحر كذاب، وإن صدقه مرسله بكتاب معجز قلتم: سحر وافتراء وأمر عجاب، وإن رزقكم من الماء الذي به حياة كل شيء مطراً ينعشكم به قلتم: صدق نوء كذا، على حال مؤد إلى التعطيل والإهمال والعبث، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن عند بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم مدبر لهذا الكون بالإرسال والإنزال وإفاضة الأرواح وقبضها وبعث العباد لدينونتهم على ما فعلوا فيما أقامهم فيه، تمثيل بأفعال الملوك على ما يعهد، فكما أن ملوك الدنيا لا يرسل أحد منهم إلى أحد من رعيته فيأخذه قهراً إلا للدينونة فكيف يظن بملك الملوك غير ذلك، فتكون ملوك الدنيا أحكم منه، فإن كان ليس بتمام القدرة فافعلوا برسله كما تفعلون برسل الملوك، فإنه ربما خلص المطلوب منهم بنوع من أنواع الخلاص بعد بلوغه إلى باب الملك فإرســاله سبحانه هو مثل إرســال الملوك غير أنه لتمام قدرته يأخذ أخذاً لا يقدر أحد على رده، ولا أن يتبع مأخوذه أصلاً لا ليخدمه بعد الأخذ ولا ليخفف عنه شيئاً مما هو فيه بغير ما أمر به سبحانه على ألسنة رسله من الدعاء والصدقة ولا ليعلم حاله بوجه من الوجوه بل الأمر كما قيل:

إذا غيب المرء استسر حديثه *** ولم يخبر الأفكار عنه بما يغني

ولما كان التقدير : لا يقدر أحد أصــلاً على ردها بعد بلوغها إلى ذلك المحل لأنا نريد جمع الخلائق للدينونة بما فعلوا فيما أقمناهم فيه وأمرناهم به ولا يكون إلا ما نريد، فكما أنكم مقرون بأنه خلقكم من تراب وبأنه يعيدكم قهراً إلى التراب يلزمكم حتماً أن تقروا بأنه قادر على أن يعيدكم من التراب فإن أنكرتم هذا اللازم لزمكم إنكار ملزومه، وذلك مكابرة في الحس فليكن الآخر مثله، فثبت أنا

إنمـا نعيـد الخلائق إلى التراب لنجمعهم فيـه ثم نبعثهم منـه لنجـازي كلاًّ بمـا يستحق ونقسمهم إلى أزواج ثلاثة {فأما إن كان} أي الميت منهم {من المقربين *} أي السـابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسـهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين، وليس القرب قرب مكان لأنـه تعالى منزهه عنـه، وإنما هو بالتخلق بالصـفات الشـريفة على قدر الطاقة البشـرية ليصـير الإنسـان روحاً خالصـــاً كالملائكة لا ســـبيل للحظوظ والشـــهوات عليه، فإن قربهم إنما هو بالانخلاع من الإرادة أصــلاً ورأســاً، وذلك أنه لا شــهوات لهم فلا أغراض فلا فعل إلا أمروا به فلا إرادة، إنما الإرادة للمولى ســبحانه وهو معنى {وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي} [النحل: 90] أي مطلق الإرادة في غير أمر من الله، لأن المملوك الذي هو لغيره لا ينبغي أن يكون له شـــيء لا إرادة ولا غيرها– وفقنا الله تعالى لذلك {فروح} أي فله راحة ورحمة ما ينعشـــه من نســيم الريح ومعنى قراءة يعقوب بالضـــم طمأنينة في القلب وســـكينة وحياة لا موت بعدها {وريحان} أي رزق عظيم ونبات حسن بهج وأزاهير طيبة الرائحة.

ولما ذكر هذه اللذاذة، ذكر ما يجمعها وغيرها فقال: {وجنات} أي بستان جامع للفواكه والرياحين وما يكون عنها وتكون عنه.

ولما كان جنان الدنيا قد يكون فيها نكد، أضـــــاف هذه الجنة إلى المراد بهذه الجنان إعلاماً بأنها لا تنفك عنه فقال : {نعيم *} أي ليس فيها غيره بل هي مقصورة عليه {وأما إن كان} أي الميت منهم {من أصحاب اليمين *} أي الذين هم الدرجة الثانية من أصـحاب الميمنة {فسـلام} أي سـلامة ونجاة وأمر وقول دال عليه. ولما كان ما يواجه به الشريف من ذلك أعلى قال: {لك} أي يا أعلى الخلق أو يا أيها المخاطب.

ولما كان من أصاب السلام على وجه من الوجوه فائزاً، فكيف إذا كان مصدراً للسلام ومنبعاً منه قال: {من أصحاب اليمين *} أي أنهم في غاية من السلامة وإظهار السلام، لا يدرك وصفها، وهو تمييز فيه معنى التعجيب، فإن إضافته لم تفده تعريفاً، وفي اللام و {من} مبالغة في ذلك، فالمعنى: فأما هم فعجباً لك وأنت أعلى الناس في كل معنى، وأعرفهم بكل أمر غريب منهم في سلامتهم وسلامهم وتعافيهم وملكهم وشرفهم وعلو مقامهم، وذلك كله إنما أعطوه لأجلك زيادة في شرفك لاتباعهم لدينك، فهو مثل قول القائل حيث قال:

فيا لك من ليل كأن نجومه *** بكل مقار العمل شدت يذبل

وقول القائل أيضاً حيث قال:

لله در أنو شروان من رجل *** ما كان أعرفه بالدون والسفل

أي عجباً لك من ليل وعجباً من أنو شروان. ولما ذكر الصنفين الناجيين، أتبعهما الهالكين جامعاً لهم في صنف واحد لأن من أريدت له السعادة يكفيه ذلك، ومن ختم بشقائه لا ينفعه ذلك الإغلاظ والإكثار فقال {وأما إن كان} أي ذلك الذي أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تنقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شيء أصلاً {من المكذبين}.

ولما كان المكذب تارة يكون معانداً، وتارة يكون جاهلاً مقتصراً، قال: {الضالين} أي أصحاب الشمال الذين وجهوا وجهة هدى فزاغوا عنها لتهاونهم في البعث {فنزل} أي لهم وهو ما يعد للقادم على ما لاح {من حميم *} أي ماء متناه في الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به القادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل به وجهه ويديه {وتصلية جحيم *} أي لهم بعد النزل يصلوا النار الشديدة التوقد صلياً عظيماً.

ولما تم ما أريد إثبات البعث على هذا الوجه المحكم البين، وكانوا مع البيان يكذبون به، لفت الخطاب عنهم إلى أكمل الخلق، وأكد تسميعاً لهم فقال سائقاً له مساق النتيجة: {إن هذا} أي الذي ذكر في هذه السورة من أمر البعث الذي كذبوا به في قولهم {إننا لمبعوثون} ومن قيام الأدلة عليه. ولما كان من الظهور في حد لا يساويه فيه غيره. زاد في التأكيد على وجه التخصيص فقال: {لهو حق اليقين *} أي لكونه لما عليه من الأدلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر، قال الأصبهاني: قال قتادة في هذه الآية: إن الله عز وجل ليس تاركاً أحداً من الناس حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك، وأما المنافق فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه– انتهى.

ولما تحقق له هذا اليقين، سبب عنه أمره بالتنزيه له سبحانه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز بعد تقسيمه للأزواج الثلاثة على طريق الإيجاز كما أمره بذلك بعد الفراغ من تقسيمهم على طريق الإطناب إشارة إلى أن المفاوتة بينهم مع ما لهم من العقول من أعظم الأدلة على الفعل بالاختيار وعلى فساد القول بالطبيعة: {فسبح} أي أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل والصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الأسماء الحسنى وتنزهه عن كل ما نزه عنه نفسه المقدس، ولقصره الفعل لإفادة العموم أثبت الجار بقوله: {باسم ربك} أي المحسن إليك بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك عما وصفه به الكفرة من التكذيب بالواقعة، وإذا كان هذا لا سمه فكيف بما له وهو {العظيم *} الذي ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان، وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه لأن من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم، وهذا الكلام الأعز الأكرم، لا ينبغي لشائبة نقص أن

تلم بجنابه، أو تدنو من فناء بابه، وقد انطبق آخر الســـورة على أولها في الإخبار بالبعث وتصـــنيف الخلائق فيه إلى الأصـــناف المذكورة في أولها أيّ انطباق، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أي اعتناق، واتفق مع أول التي بعدها أيّ اتفاق، وطابقه أجلَّ طباق، وختمت بصــفتي الرحمة والعظمة، وجلت عن الاســـم الجامع كاللتين قبلها لما ذكره في أواخر القمر من أنه لم يذكر في واحدة من الثلاث أحد من أهل المعصـية المصـاحبة للإيمان، ليخاطب بالاسم الجامع للإهانة والإحســان، وإنما ذكر أهل الكفران المســتوجبين للهوان بالخلود في النيران، وأهل الإيمان المتأهلين للإحســان بتأبيد الإمكان في أعلى الجنان- انتهى.

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n130&p1

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي